تائية أبي الحسن الأنباري
(ت بعد ٣٨٠هـ/ ١٠٠٠م)
في رثاء الوزير محمد بن محمد بن بقية
تخريج وتعليق

أ. د. محمد يونس عبد العال(*)

هي مرثية يعرفها دارسو الأدب العربي، تناقلتها مصادر أدبية وتاريخية كثيرة، وتألفت من واحد وعشرين بيتًا، رثى بها ناظمها وزيرًا من وزراء بني بويه فى القرن الرابع الهجرى عاقبه أحد حكامهم بأن سمل عينيه، ثم قضى عليه آخر بالموت تحت أرجل الفيلة، ثم مثّل به فصلبه، وقيل إنه ظل مصلوبًا إلى أن توفي ذلك الحاكم.

لذا يتجه الحديث عن هذه القصيدة إلى النقاط التالية:

١- الشاعر الراثى.
٢- الوزير المرثى.
٣- مصادر روت القصيدة أو أبياتًا منها.
٤- القصيدة وتخريجها.
٥- تعليق.

* * *

١- الشاعر الراثي:

أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب الأنبارى، شاعر مقلّ[١]، وصوفي واعظ، وأحد العدول ببغداد[٢].

وأورد الزركلي - نقلا عن بعض مؤلفات ابن قاضي شهبة المخطوطة - أنه توفي سنة نيف وثلاثمائة وتسعين[٣].

شهرتُه قصيدته التائية فى رثاء ابن بقية، وله أشعار أخرى قليلة، منها قوله فى وصف الشموع[٤]:

(*) أستاذ بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

(١) ترجمته فى: «تاريخ بغداد» ٣/ ٣٥، «وخلاصة الذهب المسبوك» ص١٥١.

(٢) «خلاصة الذهب» ص١٥١، وانظر: «وفيات الأعيان» ٥/ ١١٨، و«الوافى بالوفيات» ١/ ١٠١، و«نكت الهميان» ص٢٧٢ و«النجوم الزاهرة» ٤/ ١٣٠.

(٣) «الأعلام»، حاشية ٦/ ٣١٢ وفى «خلاصة الذهب» أنه توفى سنة ٣٨٠هـ.

(٤) أنشدهما لعضد الدولة، وكان عنده شموع تزهر، فقال له: هل يحضرك شيء فى الشموع؟ - وفيات ٥/ ١٢٢، و«الوافى» ١/ ١٠٢، و«نكت الهميان» ص ٢٧٣ و«شذرات الذهب» ٣/ ٦٤.

كـأن الشـمـوع وقـد أظهـرت مـن النـار فـى كـل رأس سنـانـا

أصـابع أعـدائك الخـائفـين تضـرّع تطلب منك الأمـانا

وقوله فى وصف الباقِلاء الأخضر[١]:

فـصـوص زمـرّد فى غلف درّ بأقـمـاع حكت تقليم ظفـر

وقـد خلع الربيع لهـا ثيـابًا لهـا لونان من بيض وخـضـر

* * *

٢- الوزير المرثي:

محمد بن محمد بن بقية بن على، وكنيته أبو الطاهر[٢]، كان أحد أربعة إخوة من أهل أوانا[٣]، كلهم يسمى محمدًا، وأبوهم أحد المزارعين.

تولى أمر المطبخ لمعز الدولة أحمد بن بُوَيْه، وكان فى ابن بقية توصّل وسعة صدر فتنقل إلى أعمال مختلفة، ولما توفي معز الدولة سنة ٣٥٦هـ وأفضى الأمر إلى ابنه عز الدولة بختيار حسنت حاله عنده ورعى خدمته لأبيه، إلى أن استوزره فى ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ[٤] بعد أبى الفضل الشيرازي، وكناه الخليفةُ المطيع ولقبه بـ «الناصح» وخلع عليه، ثم لقبه الخليفة الطائع بـ «نصير الدولة» سنة ٣٦٤هـ مضافًا إلى لقبه الأول، فكان أول وزير لقّب بلقبين.

---

(١) رواه الخطيب البغدادى، وسنده: «أنشدنا القاضى أبو القاسم التنوخى، قال: أنشدنا أبو الحسن محمد بن عمر الأنبارى لنفسه...» البيتين - «تاريخ بغداد» ٣/ ٢٥ وانظر: «وفيات» ٥/ ١٢٤

والزمرد، وبالذال المعجمة أيضا: حجر كريم شفاف أخضر اللون شديد الخضرة - «لسان العرب» (زمرد) ٤/ ١٧٧ و(زمرد) ٥/ ٢٧.

(٢) ترجمته فى: وفيات ٥/ ١١٨-١٢٤، و«سير أعلام النبلاء» ١٦/ ٢٢٠-٢٢١، والوافى ١/ ١٠٠-١٠٤، و«نكت الهميان» ص٢٧١-٢٧٣.

وأخباره بدءا من ٣٦٠هـ إلى ٣٦٧هـ فى «تجارب الأمم» لمسكويه (نشر: هـ. ف. آمدروز، ط التمدن الصناعية، ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م) ٢/ ٢٨٤-٢٨٦، ٣١٠، ٣٤٤-٣٤٧، ٣٥٤-٣٥٩، ٣٧٣-٣٧٥، ٣٧٧.

وانظر أخبار ٣٦٧هـ فى المصادر التاريخية، مثل: «الكامل فى التاريخ»، و«المختصر فى أخبار البشر»، و«تاريخ ابن الوردى»، و«مرآة الجنان»، و«البداية والنهاية»، و«النجوم الزاهرة»، و«شذرات الذهب»...

ولأبى إسحاق الصابى رسائل ديوانية كتبها عنه، وأخرى ديوانية عن نفسه إليه فى التهاني والتعازي والاستعطاف والشكوى... - انظر مصادر هذه الرسائل فى: «المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى، تحقيق ودراسة»، وهى رسالة دكتوراه مخطوطة، أعدها: محمد يونس عبد العال، ونوقشت فى كلية الآداب، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٨م، ص ٢٠٩، ٢٣٦، ٣٢٨، ٣٥٦، ٣٦٦.

(٣) أوانا: بليدة نزهة كثيرة البساتين والشجر، من نواحى دجيل بغداد - «معجم البلدان»: لياقوت الحموى.

(٤) ومن الطرائف التى رواها ابن خلكان (نقلا من كتاب «عيون السير»: لابن الهمداني) أنه لما استوزر عز الدولة ابن بقية بعد أن كان يتولى أمر المطبخ، قال الناس: «من الفضارة إلى الوزارة» - وفيات ٥/ ١١٩، والوافى ١/ ١٠٠.

والفضارة: الصحفة المتخذة من الفضارة، وهو الطين - «لسان العرب» (غضر) ٦/ ٣٢٧.

وكان عضد الدولة أبو شجاع فناخسره بن ركن الدولة (وهو أقوى البويهيين بأسًا وجسارة وطمعًا فى الملك) يناوئ ابن عمه عز الدولة، ويتوق إلى حكم بغداد، فدخلها فى جمادى الأولى سنة ٣٦٤هـ وقلّد ابن بقية أعمال واسط وتكريت وعكبرا وأوانا تقديرًا لما أظهره من مساعدة وخدمة، فذهب إلى واسط، على دَخل وغلّ قد أضمرهما، وسرعان ما خلع الطاعة، وجاهر بالخلاف، وأظهر أنه امتعض لأميره عز الدولة، ثم جرت الأحداث على غير ما يشتهي عضد الدولة، فانصرف عن العراق، وعاد ابن بقية من واسط إلى خدمة عز الدولة، وجعل همّه أن يتقرب إليه وأن يمكن الوحشة ويؤكد العداوة بينه وبين عضد الدولة.

ويروى أنه: «كان فى مدة وزارته يبلغ عضد الدولة ابن بويه عنه أمور يسوءه سماعها، منه أنه كان كان يسميه أبا بكر الغددي تشبيهًا له برجل أشقر أزرق أنمش يسمى أبا بكر، كان يبيع الغدد للسنانير ببغداد، وكان عضد الدولة بهذه الحلية»[١].

وانهزم عز الدولة فَقَبَض على ابن بقية وسمل - أى: فقأ - عينيه بواسط سنة ٣٦٦هـ لأسباب يطول شرحها، حاصلها - كما يقول ابن خلكان - أنه نسب هزيمته إلى رأيه ومشورته.

ولما ملك عضد الدولة بغداد وقتل عز الدولة أمر بإلقاء ابن بقية تحت أرجل الفيلة، وصلبه عند باب داره بباب الطاق فى شوال سنة ٣٦٧هـ، وعمره نيف وخمسون سنة[٢].

وكان أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري صديقه[٣]، فرثاه بالقصيدة التائية، ومما رواه ابن عساكر أنه «كتبها ورمى بها فى شوارع بغداد، فتداولها الأدباء، إلى أن اتصل الخبر بعضد الدولة، فلما أُنشدت بين يديه تمنى أن يكون هو المصلوب دونه، وقال: عليّ بهذا الرجل. فطُلب سنة كاملة، واتصل الخبر بالصاحب إسماعيل بن عباد بالريّ، فكتب له بالأمان، فلما سمع بذكر الأمان قصد حضرته، فقال له: أنت القائل هذه الأبيات؟ قال: نعم. قال: أنشدنيها: فلما أنشده:

ولم أر قبل جذعك قطّ جذعا تمكن من عناق المكرمات

---

(١) «وفيات» ٥/ ١١٩، وانظر: «الوافى» ١/ ١٠٠ و«نكت الهميان» ص٢٧٢.

(٢) «وفيات» ٥/ ١١٩-١٢٠ وانظر: «نهاية الأرب» ٢٦/ ٢١٦ ، وشذرات ٣/ ٦٤.

باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقى، يعرف بطاق أسماء بين الرصافة ونهر المعلّى، وكان طاقا عظيما، وعنده كان مجلس الشعراء فى أيام هارون الرشيد - «معجم البلدان» لياقوت الحموى (ط صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ١/ ٣٠٨، وأيضًا ٤/ ٥.

(٣) «تاريخ مدينة دمشق» ٧٢/ ١٧٣، والنجوم ٤/ ١٣٠.

قام الصاحب فعانقه وقبّل فاه، وأنفذه إلى حضرة عضد الدولة. فلما مثل بين يديه قال له: ما الذى حملك على مرثيّة عدوّى؟ فقال: «حقوق سلفت وأيادٍ مضت، فجاش الحزن فى قلبى فرثيت»(١).

وقيل إن ابن بقية ظل مصلوبًا إلى أن توفي عضد الدولة(٢)، فأنزل ودفن فى موضعه. فقال فيه أبو الحسن الأنباري أيضًا(٣):

لم يلحقوا بك عارًا إذ صُلبت بلى ... باءوا بإثمك ثم استرجعوا ندما
وأيقنوا أنهم في فعلهم غلطوا ... وأنهم نصبوا من سؤدد علما
فاسترجعوك وواروا منك طود علا ... بدفنه دفنوا الإفضال والكرما
لئن بليتَ فما يبلى نداك ولا ... يُنسى، وكم هالك ينسى إذا عُدِما
تقاسم الناس حسن الذكر فيك كما ... ما زال مالُكَ بين الناس منقسما

وعلى الرغم من هذه الصورة الباهتة التى أظهرتها الأخبار المتناثرة عن شخصيته فى المصادر التاريخية والأدبية، فقد وصفه بعض من تحدثوا عنه بأنه «من جلة الرؤساء، وأكابر الوزراء، وأعيان الكرماء»(٤)، وبأنه «الوزير الكبير... له أخبار فى الإفضال والتنعّم»(٥)، ويبدو أن خصومه هم الذين شوّهوا صورته وحاكوا حوله الدسائس، وأوقعوا به ما يؤذيه. قال الصفدي: «والظاهر أن أعداءه كانوا يفعلون ذلك به ويفتعلونه»(٦)، ورأى آخرون أن كرمه ستر عيوبه. قال أبو إسحاق الصابي: «رأيته وهو يشرب فى بعض الليالي، وكلما لبس خلعة خلعها على أحد الحاضرين، فزادت على مائتى خلعة»(٧)، وثمة إشارات إلى ثرائه الفاحش، منها ما روى من أن راتبه فى الشمع

---

(١) «تاريخ مدينة دمشق» ٧٢/ ١٧٣-١٧٤، ومنه نقل ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» ٥/ ١٢١-١٢٢ وانظر «نكت الهميان»، ص٢٧٣، ونقله الزركلى من رحلة خالد بن عيسى البلوي (ت بعد ٧٦٧هـ) فى كتابه «تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق» - الأعلام، هامش ٦/ ٣١٢.

(٢) كانت وفاته سنة ٣٧٢هـ، ومن طرائف ما رواه أبو حيان التوحيدى عظةً واعتبارًا أن بعضهم رأى الجذع عليه ابن بقية، فقال: «لا إله إلا الله! ما أعجب أمور الدنيا! وما أقلّ المفكر فى عِبَرها وغِيَرها! عضد الدولة تحت الأرض وعدوه فوقها!» - «الإمتاع والمؤاسة» (تحقيق: احمد أمين وأحمد الزين، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٣م) ١/ ٤١، ٤٢.

(٣) «وفيات» ٥/ ١٢١، الوافى ١/ ١٠٣، «مرآة الجنان» (أخبار ٣٦٧هـ) ص٢٧٢.

(٤) «وفيات» ٥/ ١١٨، الوافى ١/ ١٠٠، و«نكت الهميان» ص٢٧١، و«مرآة الجنان» (أخبار ٣٦٧هـ) ص٢٧٢.

(٥) «سير أعلام» ١٦/ ٢٢٠.

(٦) «نكت الهميان» ص٢٧٢.

(٧) وتتمة الخبر: «فقالت له مغنيته: يا سيدى الوزير، فى هذه الثياب زنابير، ما تدعها تثبت على جسمك. فضحك، وأمر لها بحقّة حليّ» - «وفيات» ٥/ ١١٩، «والوافى» ١/ ١٠١، و«نكت الهميان» ص٢٧١، وانظر: «سير أعلام» ١٦/ ٢٢٠.

كان ألف مَنّ[١] فى كل شهر، وعلق بعضهم على هذا بقوله: «وإذا كان هذا راتب الشمع، خاصة مع قلة الحاجة إليه فكم يكون غيره مما تشتد الحاجة إليه؟!»[٢].

* * *

٣- مصادر روت القصيدة أو أبياتا منها:

● رواها الثعالبى فى الباب السادس من اليتيمة (وعنوانه: فى نفر من شعراء العراق سوى بغداد) من القسم الثانى (وعنوانه: فى ملوك آل بويه وشعرائهم) وقال: «وقد أثبتُّها كما هي».

ولكنها منسوبة خطأ إلى «أبى بكر محمد بن أبى محمد القاسم المعروف بالأنباري»[٣] - يتيمة الدهر ٢/ ٣٧٣-٣٧٥.

والصواب - كما فى المصادر الأخرى جميعها - أنه: «أبو الحسن محمد بن عمر ابن يعقوب الأنباري».

● ورويت القصيدة فى «وفيات الأعيان» ٥/ ١٢٠-١٢١ و«حياة الحيوان الكبرى» ١/ ٨١-٨٢ بالترتيب نفسه الذى وردت به فى «يتيمة الدهر».

● الأبيات ١-١٠، ١٢، ١٣، ١٧-٢١ فى أحسن ما سمعت، ص١٥٣-١٥٤.

● ١-٦، ١١ فى «ديوان المعانى» ٢/ ١٧٩-١٨٠.

● ١-٣ فى «حماسة الظرفاء» ١/ ١١٤.

● الأول رواه الخطيب البغدادى بعد إشارته إلى أن أبا الحسن الأنباري له قصيدة فى رثاء ابن بقية، ثم ذكر سندها، قال: «أنشدناها القاضي أبو عبد الله الحسين ابن على الصميري، وأبو الحسن أحمد بن عمر بن على القاضى بأذربيجان عن أبى الحسن الأنباري، وقال لى الصميري: أنشدناها بمحضر من أبى القاسم الطبري» - «تاريخ بغداد» ٣/ ٣٥.

---

(١) المن والمنا: الذى يوزن به، وهو رطلان - لسان العرب (منّ) ١٧/ ٢٠٦، و (منا) ٢٠/ ١٦٧.

(٢) وفيات ٥/ ١١٨، الوافى ١/ ١٠٠، نكت الهميان ص٢٧١.

(٣) هو نحوى كوفى، توفى سنة ٣٢٨هـ قبل وفاة الوزير ابن بقية، من مصنفاته: «الأضداد»، و «الزاهر»، و«شرح المفضليات»، و«شرح المعلقات» - انظر ترجمته في: «تاريخ العلماء النحويين» للمفضل محمد بن مسعر، (تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو، ط٢، هجر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ص١٧٨، ١٧٩ - «تاريخ الأدب العربى» لكارل بروكلمان (أشرف على ترجمته: د. محمود فهمى حجازى، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م) القسم الأول، ص٥٤٢-٥٤٤.

● وورد الأول أيضًا فى «نهاية الأرب» ٢٦/ ٢١٦ وبدون نسبة فى «سير أعلام النبلاء» ١٦/ ٢٢١.

● ١-١٠، ١٢، ١٧-٢١ فى «أسرار البلاغة»، ص٣١٥-٣١٦.

● ١-٧ فى «محاضرات الأدباء»، ٢/ ٢٣٨.

● ١-٨، ١١-١٤، ٩، ١٠، ١٥-٢١ فى «تاريخ مدينة دمشق» (ترجمة: «جعفر بن ميسر بن يغنم، أبو محمد»، أنشدها بصيدا) ٧٢/ ١٧٢-١٧٣.

● ١، ٢، ٥، ٦، فى «المرقصات والمطربات» ص١٦٠.

● ١-٨، ١٢، ١٣، ١١، ١٥، ١٧-٢١ فى «الدر الفريد» ٤/ ٨٦.

● ١، ٢، ٤، ٨، ٧، ٥، ٦، ١١، ١٢، ١٧-١٩، ٢١ فى «خلاصة الذهب المسبوك»، ص١٥١.

● ١، ٢، ٤-٨ فى «المختصر فى أخبار البشر» ٢/ ١١٩، وفى «تاريخ ابن الوردي» ١/ ٢٩٢.

● ١-٨، ١١، ٩ فى «الكامل لابن الأثير» ٧/ ٣٧٧-٣٧٨، وفى «نهاية الأرب» ٥/ ٢٢١.

● ١-٣، ٥، ٦ بدون نسبة فى «جوهر الكنز»، ص٥٥٥.

● ١-٩، ١١-١٨، ٢٠-٢١ فى «الوافى بالوفيات» ١/ ١٠١، و«نكت الهميان فى نكت العميان»، ص٢٧٢-٢٧٣.

● ١-٤، ٨ فى «الغيث المسجم فى شرح لامية العجم» ٢/ ١٨١.

● ١-٤ فى «البداية والنهاية» ٦/ ٣٧١.

● ١-٤، ٨، ٩، ١١، ١٠، ١٢-٢٠، ٥، ٦، ٢١ فى «النجوم الزاهرة» ٤/ ١٣٠-١٣١.

● ٢، ٣ فى «معاهد التنصيص» ١/ ١٥٠.

● ١-١٢ فى «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» ٣/ ٦٣.

* * *

٤- القصيدة وتخريجها:

١- عُلُوٌّ في الحياةِ وفي الممات لَحَقٌّ أنتَ إحدى المعجزاتِ[١]
٢- كأنَّ الناسَ حولَك حين قاموا وُفُودُ نَداك أيام الصِّلاتِ[٢]
٣- كأنك قائمٌ فيهمْ خطيبًا وكلُّهمُ قيامٌ للصَّلاةِ[٣]
٤- مَدَدْتَ يديْك نحْوهمُ احتفاءً كمَدِّهما إليهمْ بالهِبَاتِ[٤]
٥- ولمَّا ضاقَ بطنُ الأرضِ عن أنْ يَضُمَّ عُلاك مِنْ بعدِ المَماتِ[٥]
٦- أَصَاروا الجوَّ قَبْرَك واستتابُوا عن الأكفانِ ثوبَ السافياتِ[٦]
٧- لِعُظْمِكَ في النفوسِ تَبيتُ تُرْعَى بحُرَّاسٍ وحُفَّاظٍ ثِقَاتِ[٧]
٨- وتُشْعَلُ عندك النيرانُ ليلاً كذلك كُنتَ أيامَ الحياةِ[٨]

---

(١) «الدر الفريد»: علوا... - «حماسة الظرفاء»: لعمرى أنت... - «ديوان المعانى»، «أسرار البلاغة»، و«تاريخ دمشق»، و«الدر الفريد»، «خلاصة الذهب المسبوك»، و«تاريخ ابن الوردى»، و«الوافى بالوفيات»، و«نكت الهميان»، و«البداية والنهاية»: بحق... - محاضرات الأدباء: فحق... - «المرقصات والمطربات»: لحقا... - «تاريخ بغداد»: لحق تلك....

(٢) «حماسة الظرفاء»: كأن القوم حولك حين جاءوا... - «ديوان المعانى»: الناس بعدك... - «حياة الحيوان»: حولك إذ أقاموا... - «المرقصات والمطربات»، و«معاهد التنصيص»: وفود يديك... - «المرقصات والمطربات»: أمام الصلاة - جوهر الكنز: أيم للصلات.

وفى «يتيمة الدهر»، و«ديوان المعانى»، و«معاهد التنصيص» أن هذا البيت مأخوذ من قول عبد الله بن المعتز فى عبد الله بن سليمان حين توفي:

وصلوا عليه خاشعين كأنهم وفود وقوف للسلام عليه

والبيت فى ديوان ابن المعتز (تحقيق: محمد بديع شريف، ط دار المعارف بمصر، د.ت) ٢/ ٣٧٥.

(٣) «حماسة الظرفاء»: كأنك قائمًا فيهم خطيب وقد حضروا جميعا للصلاة - «البداية»: كأنك واقف... وكلهم وقوف... - «ديوان المعانى»، و«الدر الفريد»: للصلات.

(٤) «يتيمة الدهر»، و«وفيات الأعيان»، و«نكت الهميان»، و«الغيث المسجم»: نحوهم احتفالا... - «ديوان المعانى»، و«نهاية الأرب»: نحوهم جميعا... - «محاضرات الأدباء»: نحوهم اتقاء... - «تاريخ دمشق»، و«الكامل»، و«الدر الفريد»، و«المختصر فى أخبار البشر»، و«تاريخ ابن الوردى»: نحوهم اقتفاء... - «ديوان المعانى»، و«محاضرات الأدباء»، و«خلاصة الذهب»، و«نهاية الأرب»، و«الوافى»، و«نكت الهميان»، و«شذرات الذهب»: كمدكها... - «تاريخ ابن الوردى»: لمدهما... وفيه وفى «الكامل» و«المختصر فى أخبار البشر»: فى الهبات.

(٥) «شذرات الذهب»: فلما... - «جوهر الكنز»: ظهر الأرض... علاك أيام الممات.

(٦) «أحسن ما سمعت»: وصاروا... - «خلاصة الذهب»، و«حياة الحيوان»: واستعاضوا... - «محاضرات الأدباء»، و«الدر الفريد»: واستعاضوا من...

السافيات: الريح التى تحمل التراب..

(٧) «نهاية الأرب»: بقيت ترعى... - «تاريخ دمشق»، و«وفيات»، و«الدر الفريد»، و«خلاصة الذهب»، و«الوافى»، و«شذرات»: بحفاظ وحراس... - «نكت الهميان»: بحفاظ وحراث... .

(٨) «أحسن ما سمعت»: أتشعل... - «حياة الحيوان»: وتوقد حولك... - «تاريخ دمشق»، و«خلاصة الذهب»، و«الغيث المسجم»: وتشعل حولك... - «حياة الحيوان»: النيران قدما...

والمراد بالنيران نيران الضيافة التي كان الكرماء يوقدونها ليلا ليهتدي بها الضيفان.

٩- رَكِبْتَ مطيَّـةً من قَـبْلُ زَيْدٌ عَلاهَا في السنين الماضياتِ[١]
١٠- وتلك قـضيـةٌ فيـهـا تَأَسٍّ تُبـاعـدُ عنكَ تعيـيـر العُـداةِ[٢]
١١- ولم أرَ قبلَ جِذْعِك قطُّ جِذْعا تمكَّنَ من عِناقِ المكرُمـاتِ[٣]
١٢- أسأْتَ إلى النوائِبِ فاستثارتْ فـأنت قـتـيلُ ثأْرِ النائِبـاتِ[٤]
١٣- وكنتَ تُجير مِن صَرْف الليالي فـعـادَ مُطالبًـا لـك بالتِّـراتِ[٥]
١٤- وصَيَّرَ دَهْرُك الإحسانَ فيه إلينا من عظيمِ السـيـئـاتِ
١٥- وكنت لمعْشَـرٍ سعدًا فلما مضيتَ تفرَّقُوا بالمنْحسـاتِ[٦]
١٦- غليلٌ باطِنٌ لك في فُؤادي حَـقِـيقٌ بالدمـوع الجـاريـاتِ[٧]
١٧- ولو أني قَدَرْتُ على قيامى بفرضِك والحقوقِ الواجباتِ[٨]
١٨- ملأتُ الأرض من نظم القوافي ونُحْتُ بهـا خِلافَ النائِحـاتِ[٩]
١٩- ولكنى أُصَبِّرُ عنك نفسى مـخـافَـةَ أنْ أُعَـدَّ من الجُناةِ
٢٠- وما لك تُرْبَةٌ فأقول تُسقَى لأنكَ نُصْبُ هَطْلِ الهاطلاتِ[١٠]
٢١- عليك تحيةُ الرحمن تَتْرَى برحْـمـاتٍ غَـوادٍ رائِحـاتِ[١١]

* * *

(١) «تاريخ دمشق»، و«الكامل»، و«نهاية الأرب»، و«نكت الهميان»: السنين الذاهبات.
وفى البيت إشارة إلى زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، وكان قتل وصلب فى أثناء خلافة هشام بن عبد الملك
(٢) «أسرار البلاغة»، و«تاريخ دمشق»، و«وفيات»، و«شذرات»: وتلك فضيلة... - «تاريخ دمشق»: عنك أسباب الدنات وليس بشيء.
(٣) «حلاصة الذهب»، شذرات: فلم... - الدر الفريد: مثل جذعك... .
(٤) «أسرار البلاغة»: إلى الحوادث... .
(٥) «حياة الحيوان»: وكنت تجيرنا من صرف دهر... - «النجوم»: جور الليالى.. - التراث: جمع ترة وهى الثأر.
(٦) «نكت الهميان»: وكنت لمعسر... - «تاريخ دمشق»: تمزقوا بالمنحسات - «الدر الفريد»: فى المنحسات.
(٧) «تاريخ دمشق»: غليلى...، وفيه وفى وفيات والوافى ونكت الهميان والنجوم: يخفف بالدموع...
وفى «يتيمة الدهر» أن هذا البيت أخذه من قول ابن الرومي:

لـم يـظـلـم الـدهـر أن تـوالـت فـيكم مـصـيـبـاته دراكـا
كنتم تحـيـرون من يعـادي منه فـعـاداكم لذاكـا

والبيتان فى ديوانه (تحقيق: د. حسين نصار، ط٢، ط دار الكتب بمصر، ٢٠٠٢م) ٥/ ١٨٤١.
(٨) «أحسن ما سمعت»، «وفيات، و«الوافى»، و«نكت الهميان»، و«حياة الحيوان»، و«النجوم»: على قيام... - «خلاصة الدهب»: على قضائى لفضلك... - وفيات، والنجوم: لفرضك... .
(٩) «حلاصة الذهب»: غرر القوافى... - «تاريخ دمشق». نظم المرائى... - «الدر الفريد»: خلال النائحات.
(١٠) «الدر الفريد». عين الهاطلات.
(١١) «تاريخ دمشق»: برحمات روائح غاديات.

٥- تعليق:

من الملحوظ أن بعض الشعراء قديمًا أشاروا إلى المصلوبين ووصفوهم، مثل ذي الرُّمة (ت نحو ١١٧هـ) الذى أراد أن يصور الحرباء، فقال[١]:

كـأن حـرباءها فـى كل هاجـرة ذو شيبة من رجال الهند مصلوب

وقال مسلم بن الوليد (ت ٢٠٨هـ) من قصيدة فى مدح داود بن يزيد[٢]:

وضعته حيث ترتاب الرياح به وتحسد الطير فيه أضبُع البيد

تغدو الضوارى فترميه بأعينها تستشق الجوّ أنفاسًا بتصعيد

ومن هؤلاء الوصافين: أبو تمام (ت ٢٣١هـ)[٣]، وابن الرومى (ت ٢٨٣هـ)[٤] والبحترى (ت ٢٨٤هـ)[٥] والسرىّ الرفاء (ت نحو ٣٦٢هـ)[٦].

وقد وجد هذا الغرض الشعرى قبولا لدى كثير من الناس فى الأزمنة السابقة وموافقة لأذواقهم، واهتمت بعض المصنفات برواية ما شبهت به الشعراء المصلوبين، فأوردت نماذج لهؤلاء الذين سبق ذكرهم، ونماذج أخرى لغيرهم، مثل أبي بكر الأخيطل، وإبراهيم بن المهدي، وابن المعتز، ودعبل، والعقيلى، وابن حمديس ، وعمارة اليمنى. من هذه المصنفات: «التشبيهات»: لابن أبي عون (ت ٣٢٢هـ)[٧] . و«كتاب الصناعتين»: لأبي هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ)[٨]، و«زهر الآداب وثمر الألباب»: للحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ)[٩] و«أسرار البلاغة»: لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)[١٠]، «ومحاضرات الأدباء»: للراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ)[١١]، و«المثل السائر»: لضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ)[١٢]، و«وفيات الأعيان»: لابن خلكان

---

(١) ديوانه (نشر: كارليل هنرى هيس مكارتنى، ط كمبريج، ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٩م) ص٣٧.

(٢) ديوانه (تحقيق: سامى الدهان، ط٢، دار المعارف بمصر) ص١٦٥.

(٣) له أشعار مشهورة مدح بها المعتصم لمّا صلب الأفشين خيذر بن كاوس وبابك ومازيار - ديوانه (تحقيق: محمد عبده عزام، ط٢، دار المعارف بمصر) ٢/ ٢٠٧-٢٠٨ وأيضًا ٣/ ١٤٤.

(٤) ديوانه (تحقيق: د. حسين نصار، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤-٢٠٠٢م) ٢/ ٦٠٩، وأيضًا ٥/ ١٨٩٤.

(٥) ديوانه (تحقيق: حسن كامل الصيرفى، ط٢، دار المعارف بمصر) ١/ ١٠.

(٦) ديوانه (تحقيق: د. حبيب حسين الحسينى، ط الطليعة، العراق، ١٩٨١م) ص٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٧، ٦٠٠، ٦٩٥-٦٩٦.

(٧) تصحيح: محمد عبد المعيد خان، ط كمبريدج، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ص٢٢-٢٥.

(٨) تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، ط١، الحلبي، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ص٢٥٤.

(٩) ط٥، دار الجيل، لبنان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١٠٩٢-١٠٩٣.

(١٠) ص١٧٥-١٧٦.

(١١) ٢/ ٨٦.

(١٢) تحقيق: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، ط١، نهضة مصر، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ٢/ ٧-٩.

(ت ٦٨١هـ)[١] ، و«والوافي بالوفيات»: للصفدي (ت ٧٦٤هـ)[٢] ، و«معاهد التنصيص»: للعباسي (ت ٩٦٣هـ)[٣].

ولكن لم تنل مرثية فى مصلوب من الثناء مثلما نالت مرثية أبى الحسن الأنباري، فوصفها الثعالبى بأنها فريدة تدل على أن صاحبها من أفراد الشعراء[٤] وقال الخطيب: «وهى مستحسنة معروفة»[٥]، وقال ابن خلكان: «اتفق العلماء على أنه لم يعمل فى بابها مثلها»[٦]، وقال الصفدى: «لم أر فى مصلوب أحسن منها»[٧]، وقال أيضًا: «ما لأحد مثلها، ولو لو يكن إلا أولها لكفى بها حسنًا... وهى مشهورة فلا فائدة من إثباتها»[٨]، وقال ابن تغري بردي: «لم أذكر هذه المرثية بتمامها هنا إلا لغرابتها وحسن نظمها»[٩].

وكان عبد القاهر الجرجانى قد أقرّ بما يثيره منظر المصلوب من البشاعة والشناعة، قال: «... وقد عُلم أنه ليس فى الدنيا مُثْلَة أخزى وأشنع، ونَكال أبلغ وأفظع، ومنظر أحق بأن يملأ النفوس إنكارًا، وتنزعج القلوب استفظاعًا له واستنكارًا، ويُغري الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ودرك الشقاء من أن يُصلب المقتول ويُشبح (أى: يُمدّ) فى الجذع»، ولكن عبد القاهر حاول أن يعلل لما وجده من إعجاب الناس وافتتانهم بقصيدة أبي الحسن الأنباري، فقال: «ثم قد ترى مرثية أبى الحسن لابن بقية حين صُلب، وما صنع فيها من السحر حتى قلب جملة ما يُستنكر من أحوال المصلوب إلى خلافها، وتأوّل فيها تأويلات أراك فيها وبها ما يقضى (أى يفنى وينفذ) منه العجب»[١٠].

---

(١) ٥/ ١٢٣-١٢٤.

(٢) ١/ ١٠٣-١٠٤.

(٣) ١/ ١٥٠.

(٤) «يتيمة الدهر» ٢/ ٣٧٣ وانظر: «سير أعلام» ٢٦/ ٢٢١.

(٥) «تاريخ بغداد» ٣/ ٣٥.

(٦) «وفيات» ٥/ ١٢٣.

(٧) «الوافي» ١/ ١٠١ وانظر: «نكت الهميان»، ص٢٧٢ و«حياة الحيوان» ١/ ١٣٢.

(٨) «الغيث المسجم» ٢/ ١٨١.

(٩) النجوم ٤/ ١٣١.

ومن المختارات الأدبية الحديثة التى روت القصيدة، كتاب «نفح الأزهار فى منتخبات الأشعار» وفيه أنها «من القصائد الطنانة، بلغت من الشهرة والاستحسان أعظم مبلغ»، جمع الكتاب: شاكر البتانوني، وضبطه وصححه: الشيخ إبراهيم اليازجي (ط٦، العمومية، بيروت، ١٨٩٩م) ص٩٧، ٩٨ وكتاب: «جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء اللغة» للسيد أحمد الهاشمي (ط٢٧، التجارية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ٢/ ٢٩٠-٢٩١.

(١٠) «أسرار البلاغة»، ص٣١٥، ٣١٦.

وبعد،

فيبقى القول بأنه على الرغم مما لاقته هذه القصيدة قديمًا من ذيوع وشهرة واستحسان، وما ذهب إليه عبد القاهر من أنها حافلة بالتأويلات الساحرة العجيبة المتناهية فى إثارة الدهشة - فالذي لاشك فيه أن مثل هذه الأشعار فى وصف المصلوبين لا تستطيع أن تجد لدينا فى العصر الحديث قبولا مهما قيل عن حسن نظمها واشتمالها على كل جميل من التشبيهات والاستعارات والمجازات والمعانى المبتدعة المخترعة التى لم يكن للسابقين عهد بها من قبل.

والذي يبقى من القصيدة أن لها دلالاتها وأبعادها التاريخية والسياسية والثقافية والاجتماعية، بل واللغوية الفنية أيضًا.

وربما تدفع إلى شيء من التأمل، فثمة تناقض واضح بين صورة المرثىّ وقد جعل منه المؤرخون دسّاسا يحيك المكايد، ويصل بدهائه إلى أن يصير وزيرا بعد أن كان فى بداية أمره يتولى شئون المطابخ لرؤسائه، وصورته فى القصيدة، وقد حلق بها الشاعر فى فضاء الخيالات وتجاوز الواقع الأرضي ونسي أو تناسى أن ممدوحه قد مات، فوصفه بأنه معجزة من المعجزات، عال على خشبته مثلما كان عاليًا فى حياته، يمد يديه محتفيًا مثلما كان يمدهما بالعطايا، والناس يتحلقون حوله، وكأنه واقف يخطب فيهم وهم أمامه قائمون للصلاة، الفضاء الواسع قبره لا الأرض الضيقة، والنيران حوله إنما هى النيران المشعلة للمعتفين المجتدين... إلخ، ولكن هل يمكن أن نلمس فى هذه القصيدة نبرة الاعتراض وصرخة الاحتجاج؟ قالوا بأن الشاعر كتبها ورمى بها فى شوارع بغداد، فتداولها الأدباء، ثم اتصل الخبر بالحاكم، فاستتر الشاعر سنة كاملة؛ لأن فى مدحه لذلك البائس المصلوب وإعلاء شأنه إهانةً للحاكم الصالب ورفضًا لمشيئته، يقول الشاعر قبيل اختتامه للقصيدة:

ولو أني قَدَرْتُ على قيامى ... بفرضِك والحقوقِ الواجباتِ
ملأتُ الأرض من نظم القوافي ... ونُحْتُ بها خلافَ النائحاتِ
ولكنى أُصَبِّرُ عنك نفسى ... مخافَةَ أنْ أُعَدَّ من الجُناةِ

المصادر

- «احسن ما سمعت»، الثعالبى (أبو منصور عبد الملك لن محمد - ٤٢٩هـ)،
نشر: محمد صادق عنبر، ط٢، المحمودية، القاهرة، د. ت.
- «أسرار البلاغة فى علم البيان»، عبد القاهر الجرجانى بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)،
نشر: محمد عبد العزيز النجار، ط صبيح، القاهرة ١٩٧٧م.
- «الأعلام»، الزركلى» (خير الدين بن محمود بن محمد - ١٩٧٦م)،
ط ١٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٨م.
- «البداية والنهاية»، ابن كثير (إسماعيل بن عمر - ٧٧٤هـ)،
ط دار الغد العربى، القاهرة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- «تاريخ بغداد»، الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي - ٤٦٣هـ)،
ط السعادة، مصر، ١٣٤٩هـ/١٩٣١م.
- «تاريخ مدينة دمشق»، ابن عساكر (على بن الحسن بن هبة الله - ٥٧١هـ)،
تحقيق: محب الدين أبي سعد عمر بن غرامة العمروي، ط دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- «تاريخ ابن الوردى (زين الدين عمر بن المظفر - ٧٤٩هـ)،
ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- «جوهر الكنز»، أو: «تلخيص كنز البراعة فى أدوات ذوى اليراعة»، ابن الأثير الحلبي (نجم الدين احمد بن إسماعيل - ٧٣٧هـ)
تحقيق: د. محمد زغلول سلام، ط منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.
- «حماسة الظرفاء»، العبدلكاني الزوزني (عبد الله بن محمد - ٤٣١هـ)،
تحقيق: محمد جبار المعيبد، منشورات وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٣م.
- «حياة الحيوان الكبرى»، الدميري (محمد بن موسى - ٨٠٨هـ)،
ط الشرفية، القاهرة، ١٣١٣هـ.
- «خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك»، عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربلي - ٧١٧هـ)،
نشر: مكي السيد جاسم، ط المثنى، بغداد، ١٩٤٤م.
- «الدر الفريد وبيت القصيد»، محمد بن أيدمر - ٧١٠هـ،
منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، إصدار: فؤاد سزكين، ١٤٠٨-١٤١٠هـ/١٩٨٨-١٩٨٩م.

- «ديوان المعاني»، أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله - نحو ٣٩٥هـ)،
ط القدسى، القاهرة، ١٣٥٢هـ.
- «سير أعلام النبلاء»، الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان - ٧٤٨هـ)،
ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب»، ابن العماد الحنبلي (عبد الحى بن أحمد بن محمد - ١٠٨٩هـ)،
ط القدسى، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- «الغيث المسجم فى شرح لامية العجم»، الصفدي (خليل بن أيبك بن عبد الله - ٧٦٤هـ)،
ط الأزهرية المصرية، ١٣٠٥هـ.
- «الكامل»، ابن الأثير عز الدين (على بن محمد - ٦٣٠هـ)،
ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- «لسان العرب»، ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم - ٧١١هـ)،
ط بولاق، القاهرة، ١٣٠٠هـ.
- «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»، الراغب الأصفهانى (أبو القاسم حسين بن محمد - ٥٠٢هـ)، ط الشرفية، مصر، ١٣٢٦هـ.
- «المختصر فى أخبار البشر»، أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل - ٧٣٢هـ)،
ط١، الحسينية. القاهرة، د.ت.
- «مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان»، اليافعي (عبد الله بن أسعد بن علي -٧٦٨هـ)، ط حيدر آباد، ١٣٣٧هـ.
- «المرقصات والمطربات»، ابن سعيد (على بن موسى - ٦٧٣هـ)، ط دار محب، بيروت، ١٩٧٣م.
- «معاهد التنصيص»، العباسي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد - ٩٦٣هـ)، ط البهية، مصر، ١٣١٦هـ.
- «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، ابن تغري بردى (أبو المحاسن يوسف الأتابكى - ٨٧٤هـ)، ط١، دار الكتب المصرية، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.
- «نكت الهميان فى نكت العميان»، الصفدى، ط الجمالية، مصر، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.
- «نهاية الأرب فى فنون الأدب»، النويري (أحمد بن عبد الوهاب - ٧٣٣هـ)، الجزء الخامس، ط دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.

الجزء السادس والعشرون، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- «الوافي بالوفيات»، الصفدي، اعتناء: هلموت ريتر، ط جمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادن، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.
- «وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان»، ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر - ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، ط دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- «يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر»، الثعالبي، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ط حجازى، مصر، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.